

الفصل الثالث

جماعات الصفوة في العالم الثالث

نظرية مجتمع الموزايكا التعددي

إذا كانت التعددية قد فهمت في الفصل السابق على أنها تباين في الأجزاء المكونة للنسق وفي أنماط الممارسة السياسية ومصادر القوة داخله ، فإنها تفهم هنا بمعنى مغاير تماما . فالتعددية هنا تستخدم بمعناها الحرفي لتشير الى وجود جماعات عرقية وثقافية تعيش بجانب بعضها البعض الآخر مع قليل من الاتصال والتفاعل ، وكثير من الصراع تحت هيمنة جماعة سياسية واحدة . وهكذا يصور البناء الاجتماعي للمجتمعات الأفريقية، ومجتمعات الشرق الأوسط ، ومجتمعات جنوب شرق آسيا على أنه بناء يحوي في داخله مظاهر عدم الاستمرار discontinuties والانشقاق cleavages ولا يعرف أى شكل من أشكال التكامل والاستمرارية . وإذا ظهر التكامل والاستمرارية فإنهما يجب أن يفرضا على البناء المنقسم من الخارج . وهكذا يبدو القهر وكأنه ضروري ، وتحكم الصفوة وكأنه حتمى . والمجتمع التعددي وفق هذا المنظور يشبه قطعة الموزايكا ، التي تتكون من قطع صغيرة ذات ألوان وأحجام ونوعيات مختلفة لا تستطيع أن تضعها بجوار بعضها الا يدي فنان . ولقد استخدم بعض أنصار هذا الاتجاه بالفعل - وكما سيتضح لنا أثناء العرض التالي - مصطلح « مجتمع الموزايكا Mosaic society » ومصطلح « نظرية الموزايكا Mosaic theory » ، بينما فضل البعض الآخر استخدام مصطلح المجتمع التعددي Plural society ليشير الى نفس ما يشير اليه مصطلح مجتمع الموزايكا أو نظرية الموزايكا . ومن هنا جاء الجمع بين الاصطلاحين في عنوان هذا الفصل .

وسوف ينصب الاهتمام في هذا الفصل على الكشف عن الجذور الفكرية التي استمدت منها هذه النظرية اطارها المعرفى ، على أن يتم التركيز بعد ذلك على توضيح آراء أنصار هذا الاتجاه حول الموضوعات الأساسية التي يدور حولها التحليل النظرى الذى نقدمه في هذا الجزء من البحث ، ومدى انعكاس هذه الآراء على اتجاهات البحث الامبيريقى في المجتمعات الريفية . هذا فضلا عن الكشف عن مدى ملاءمة هذا الاتجاه لدراسة جماعات الصفوة في المجتمع الريفي ومدى صدقه الامبيريقى وذلك من خلال رؤية نقدية . وهكذا سوف يضم هذا الفصل العناصر الآتية :

- أولا : الجذور الفكرية لنظرية مجتمع الموزايكا .
- ثانيا : القضايا الأساسية لنظرية مجتمع الموزايكا .
- ثالثا : اتجاهات البحث الامبيريقى في المجتمعات الريفية .
- رابعا : نقد نظرية مجتمع الموزايكا .

اولا : الجذور الفكرية لنظرية مجتمع الموزايكا

ترجع الجذور الفكرية لهذه النظرية الى أعمال كل من فيرنفال Furnivall عن جنوب شرق آسيا ، وكارلتون كون Carlton Coon عن الشرق الأوسط . غير أن هناك مجموعة من المؤثرات الأخرى التي أثرت على هذا الاتجاه بطريق غير مباشر ، نشير هنا الى بعض منها قبل أن نشير تفصيلا الى أعمال فيرنفال وكون :

١ - أشار بعض الباحثين المهتمين بموضوع التكامل في دول العالم الثالث ، والذين اندرجت أعمالهم تحت الاتجاه النظرى الذى عالجنه في الفصل السابق ، أشاروا الى وجود خلاقات عرقية ودينية وإقليمية في المجتمعات الحديثة في آسيا وإفريقيا . فقد أشار جيلوفورد جيرونز الى سيادة ما أسماه « بالروابط البدائية » والتي تقوم على روابط الدم ، والعرق ، واللغة ، والدين والعبادات (١) . وبنفس الطريقة وصف إدوارد شيلز المجتمعات التقليدية

G. Geertz, op. cit., pp. 112-113.

(١)

بأنها تتكون من تجمعات متفرقة تقرم على العرق ، والطائفة ، والمشايع ، والدين واللغة . وهى تجمعات ليس لديها سوى شعور طفيف بالتوحد مع بعضها البعض أو مع الاطار القومى الذى تعيش فيه (٢) . وتشير هذه الآراء الى الرابطة التى يمكن أن تربط هذا الاتجاه بالاتجاه التعددى فى صورته التى عرضت فى الفصل السابق (٢) .

٢ - ركز علماء الاجتماع الذين يدرسون الاقليات على دراسة العلاقات بين الأجناس فى تحليلهم للبناء الاجتماعى فى المجتمعات المتقدمة . فقد كتب جونار ميردال Gunnar Myrdal عن وجود تمطين متصارعين من القيم فى المجتمع الأمريكى يرتبط كل منهما بجماعة معينة . واقد انت سيطرة أحد هذين النمطين على النمط الآخر الى ما أسماه ميردال « بالعضة الأمريكية » (٤) . ولقد أشار لويد وارنر - قبل ميردال - الى وجود نمط للتدرج الاجتماعى غير ذلك النمط القائم على الطبقة والمكانة ، وهو التدرج القائم على نظام الطوائف حيث يوجد ضرب من التوازن بين فرعية العرق والوضع الذى يحتله الشخص فى نسق التدرج الاجتماعى (٥) . واهتم جون ركس Rex الذى كتب - فى وقت مبكر - مقالا عن المجتمع التعددى (٦)

E. Shilis, «On the Comparative Study of the New States», (٢) in Geertze (ed.), op. cit., p. 3.

(٣) يبدو أن قضية الانقسام العرقى قد ظهرت كقضية ثانوية فى الاتجاه التعددى الوظيفى ، حيث كان الاهتمام منصبا على تحليل التباين الاجتماعى - الثقافى . ولقد طور الباحثون الذين نهتم بأرائهم هنا هذه القضية الثانوية التى وصلت الى اتجاه تعددى جديد .

G. Myrdal, *The American Dilemma : Negro Problem and Modern Democracy*, Harper, New York, 1944. (٤)

L. Warner, «American Caste and Classe» A.J.S., Vol. 42, (٥) No. 2, 1936, pp. 324-232.

J. Rex, «The Theory of Plural Society», B.J.S. Vol. 10. (٦) No. 1, 1959, pp. 114-124.

Plural Society • باختبار نظرية ميردال في دراسة - اجراها مع روبرت مور Moore - عن المصالح العرقية المتصارعة في مدينة برمنجهام • وطور ركس في هذه الدراسة مفهوم الطبقات السكنية housing classes الذى يقوم على أسس عرقية • فكل جماعة عرقية تتجمع في نمط سكنى خاص، وتحاول بكل الوسائل أن تحد من فرص الجماعات الأخرى في الحصول على الأرض أو أى خدمات أخرى (٧) •

٣ - يميل بعض الدارسين إلى اعتبار بعض المجتمعات المتقدمة - خاصة كندا والولايات المتحدة - مجتمعات تعددية على أساس الفروق العرقية بين الجماعات الأساسية التى تعيش في هذه المجتمعات • غير أنهم يذهبون إلى القول بأن هذه المجتمعات قد حققت قدرا كبيرا من التكامل • ولقد انعكست هذه الرؤية النظرية على مجموعة من البحوث قدمت إلى مؤتمر عن « التعددية في مجتمع ديمقراطي Pluralism in a Democratic society عقد في نيويورك عام ١٩٧٥ (٨) • فقد كان من أهداف المؤتمر التأكيد على أن الحياة الأمريكية تتكون من جماعات مختلفة تشبه الموزايكا ، تحتفظ كل منها بهويتها الخاصة ، وتساهم كل منها في تنوع التراث الأمريكى وإثرائه في ذلك الوقت • ولقد تم تحقيق التكامل بين هذه الجماعات تحت زعامة الصفوة الانجليزية التى وضعت أسس الهجرة إلى أمريكا ، وحمت القانون والدستور وحرية الدين والعبادة في جو تنفصل فيه الكنيسة عن الدولة (٩) • وبالنسبة للمجتمع الكندى فقد تحدث جون بورتر عما أسماه بالموزايكا الرأسية ، حيث توجد علاقة بين التدرج الطبقي والتدرج السلالي ، الأمر

J. Rex and R. Moore, *Race, Community and Conflict*, (٧) Oxford University Press, London, 1967, p. 16.

(٨) ظهرت هذه البحوث في المجلد التالى :
Milvin M. Tumin and W.P. Platch (eds.) *Pluralism in A Democratic Society*, Praeger Publishers, N.Y., 1977.
Ibid, The Introduction by M. Tumin, pp. V-Xiii

الذى أدى الى مزيد من الانقسام الثقافى والاقليمى ، يتكامل فقط من خلال حكومة فيدرالية مركزية (١٠) .

ومع ذلك فان ايا من هذه الاشارات لم تعتبر مشكلة الانقسام العرقى فى العالم الثالث مشكلة أساسية ، ولكن وجودها يشير الى ان المسألة مطروحة على أى حال ، كما يشير أيضا الى العلاقة التى تربط الاتجاه «التعدى الوظيفى بالاتجاه التعدى العرقى» . ذلك أن معظم هذه الاشارات والآراء قد ظهرت أساسا من داخل الاتجاه التعدى الوظيفى . ولقد دفع هذا بعض الباحثين الى تتبع مشكلة الانقسامات العرقية واللغوية والاقليمية فى مجتمعات العالم الثالث ليطوروا اتجاها تعديدا خاصا بهم . ولقد وجد هؤلاء الباحثون - وكما أشرت من قبل - فى أعمال فيرنفال وكارلنوتون كون البداية التى اشتقوا منها موقفهم العرقى . وسوف أعرض هنا باختصار لآراء كل من فيرنفال وكون على أنها تمثل الجذور الفكرية لنظرية مجتمع الموزايكا التعددى .

كان فيرنفال أول من أشار الى مفهوم « المجتمع التعددى » وذلك فى دراسته عن أقاليم جنوب شرق آسيا الإدارية . والمجتمع التعددى عند فيرنفال هو مجتمع لا توجد به جماعات متكاملة Corporate groups . فلا يوجد لدى الافراد أهداف عامة أو جماعية . ففى مجتمعات جنوب شرق آسيا - ويعمم فيرنفال ذلك القول على كل المجتمعات الإدارية - يتكون المجتمع من خليط من الجماعات العرقية التى « تختلط مع بعضها دون أن تقوم بينها رابطة » ، ذلك لأن كل جماعة تحتفظ بدينها الخاص ، ولغتها الخاصة ، وأفكارها وأساليب حياتها الخاصة . ولا تلتقى هذه الجماعات الا فى السوق حيث تتم عمليات البيع والشراء ، وهى بذلك تكون مجتمعا تعديدا تعيش فيه جماعات متلاصقة - ولكنها منقسمة على نفسها - داخل اطار سياسى واحد (١١) . وترتبط الطبيعة التعددية للمجتمع بالعوامل الآتية :

J. Porter, The Vertical Mosaic, University of Toronto (١٠) Press, 1965, p. 16.

J.S. Furnivall, Colonial Policy and Practices : A Comparative Study of Burma and Netherlands India, Cambridge (١١) University Press, 1948 p. 304.

١ - ارتباط الفرد بجماعته السلالية ارتباطا يفوق ارتباطه بالمجتمع ككل ، وهكذا تعيش الجماعات العرقية كبناءات اجتماعية منفصلة أو مستقلة (١٢) .

٢ - يوجد على المستوى الاقتصادى نوع من تقسيم العمل الاقتصادى بين الجماعات العرقية المختلفة ، حيث تتخصص كل جماعة عرقية فى نوع معين من المنتجات . وحتى داخل الجماعة الواحدة توجد جماعات فرعية تمارس كل منها حرفة معينة . (١٣)

٣ - وفى هذه الظروف ، لا توجد فى مثل هذا المجتمع ارادة جماعية ، ولا يتجسد الطلب بشكل جماعى ، طالما أن كل جماعة تهتم فقط بتحقيق مصالحها الخاصة (١٤) .

ومثل هذه الجماعات المتفرقة لا تكون مجتمعا الا اذا وجدت قرة تمكنها من أن تلتقى على كلمة سواء . ويركز فيرنفال على السوق كأداة تكاملية فى المجتمع التعددى . غير أن السوق لا يخلق مصالح مشتركة ، ولا يجمع الناس على أهداف عامة بحيث يظهر نوع من الطلب الجماعى ، فنظام السوق لا يلغى قانون « البقاء للأصلح » الذى يحكم هذه الجماعات التعددية . (١٥) ويبدو أن فيرنفال يود أن يؤكد فى هذا الصدد على وجود « مشكلة نظام » ملحة فى مثل هذا النوع من المجتمعات . فلا بد أن يظهر شكل من أشكال التكامل بين كل هذه الجماعات المتفرقة . ويتم ذلك - من وجهة نظر فيرنفال - من خلال حكومة فيدرالية مركزية . ولا يتم ذلك بصورة عشوائية ، وإنما يتم من خلال عملية مرحلية تتعب فيها مرحلة الحكم الاستعماري دورا حيويا فى خلق التكامل ، وبعدها « تظهر مرحلة انتقالية

J.S. Furnivall, Netherlands India : A Study of Plural Economy, Cambridge University Press 1963, p. 446. (١٢)

Furnivall, 1948, p. 305. (١٣)

Furnivall, 1963, pp. 306-310. (١٤)

Ibid. p. 449. (١٥)

قبل أن تنتقل السلطة الى الحكومات الشعبية الوطنية » (١٦) . ومع ذلك نجد فيرنفال يؤكد - من الناحية النظرية - على أربعة مصادر للتكامل : الطائفة ، والقانون ، والقومية ، والنظام الفيدرالي (١٧) .

وجاءت الخطوة الثانية في تطوير هذه النظرية من كارلتون كون في دراسته الشهيرة عن الشرق الأوسط (١٨) . صور كون مجتمعات الشرق الأوسط على أنها مجتمعات تشبه القافلة المتحركة (الكارافان) . فهي صورة متعددة الألوان ، أو موزايكا متعددة الألوان . وأساس هذا التعدد هو تقسيم العمل القائم على العرق أو السلالة ، حيث تمتص كل جماعة عرقية بمهنة معينة ، ولقد كتب كارلتون كون في هذا الصدد يقول :

« ينظم الناس في مجتمعات الشرق الأوسط في نسق اجتماعي معقد يقوم على تقسيم العمل العرقي . فقد استطاع كل أعضاء جماعة أن يشتقوا لأنفسهم تقنيات معينة ومهارة يتقنوها اتقانا من الطراز الأول . وهم يحافظون على هذه التقنيات وتلك المهارة من خلال العيش سويا ، والاحتفال بالعطلات في تجمعات مستقلة ، وتربية أطفالهم على فكرة أن عليهم أن يتعلموا حرفة معينة » (١٩) .

وأضاف في مكان آخر :

« يشعر أعضاء كل وحدة عرقية بالحاجة الى توحيد أنفسهم مع تشكيل من الرموز ، فإذا كان لكل جماعة من هذه الجماعات تميز عرقي معين ، فإن هذا التميز يتدعم من خلال أساليب سلوكية خاصة كان تتبع كل جماعة أسلوبا معيناً في قص الشعر ، وارتداء أنواع معينة من الحلى ، والسلوك بطريقة متميزة » (٢٠) .

Furnivall, 1948, pp. 485-505. (١٦)

Furnivall, 1963, pp. 464-469. (١٧)

C. Coon, **CARAVAN : The Story of the Middle East**, (١٨)
Rinehart and Winston, N.Y. 1958, 1st published in 1951.

Ibid., p. 3 (١٩)

Ibid., p. 157. (٢٠)

أما المصدر الثانى للتمددية فى مجتمعات الشرق الأوسط فإنه يرتبط بوجود ثلاثة أنماط متميزة من الجماعات المحلية المنعزلة بعضها عن البعض الآخر وهى : المخيم البدوى ، والقرية ، والمدينة . فكل وحدة من هذه الوحدات تبدو وكأنها مستقلة عن الوحدات الأخرى ، بل أننا يمكن أن نعثر داخل وحدة معينة منها على جماعات مختلفة منقسمة بعضها على البعض الآخر ، ولا يوجد بين هذه الوحدات الثلاثة سوى قدر طفيف من الاتصال (٢١) . ويبقى مصدر ثالث لهذه الوحدات الثلاثة سوى قدر طفيف من بالانقسام بين ما يطلق عليهم كون « أهل الوداعة » ، *tames* ، وأهل العجرفة ، *insolent* . انقسم الأول هم جموع السكان الخاضعين للسلطات داخل كل وحدة اجتماعية من الوحدات الثلاثة سائلة الذكر ، أما القسم الثانى فهم سكان المرتفعات الذين يطورون نوعا من الحكم الذاتى ويشكلون مصدر خوف وقلق للسلطة الحاكمة مثل الدوروز والاكراذ والبربر (٢٢).

وكل هذه الانقسامات هى التى تحول مجتمعات الشرق الأوسط الى ما يشبه « القافلة المتحركة » ، أو لوحة الموزايكا التى تحوى ألوانا متعددة . والحكومة المركزية هى التى تلم شمل مثل هذا المجتمع . ويذهب كون فى هذا الصدد الى القول بأن حكومات مجتمعات الشرق الأوسط التقليدية تقوم على نفس المبادئ التى يقوم عليها بناء القرية أو المدينة ، فكل حكومة تتكون من مجموعات من الافراد لكل جماعة منها حياتها الخاصة ، وتوازنها الداخلى الخاص بها . ولا يجتمع هؤلاء الافراد سوى الا بدافع الحاجة المشتركة للتجارة والخصاف (٢٣) . الحكومة تتكون اذن من مجموعة من الصفوات تحقق بينها توازنا داخليا يسير على نفس خطوط التوازن التى يقوم عليها توازن مجتمع القرية أو المدينة . ويتضمن ذلك القول بأن جماعات الصفوة فى الوحدات المحلية والحضرية والبدوية تقوم على نفس المبادئ التى تقوم عليها الحكومة المركزية ، فهى جماعات تجمعها فقط المصالح المشتركة مع

Ibid., p. 171-196.

(٢١).

Ibid., pp. 292-321.

(٢٢).

Ibid., p. 264.

(٢٣).

٢٠ الاحتفاظ بالاطار الانقسامى الذى تعيش فيه • واذا كان النسق السياسى - سواء فى مستواه القومى أو المحلى - هو النسق الأساسى فى تحقيق التكامل فى هذا النوع من المجتمعات ، إلا أن هناك بعض الميكانيزمات الاجتماعية الأخرى التى تسهم فى تحقيق التكامل منها : نظام الزكاة ، والتنظيمات الصوفية التى يجتمع فيها أفراد ينتمون الى جماعات عرقية مختلفة ، وكذلك الطقوس المتوارثة التى تجمع عناصر مختلفة من ديانات مختلفة (٢٤) •

ولقد تبنى بعض المهتمين بمجتمعات جزر الهند الغربية West Indies ومجتمعات افريقيا مفهوم فيرنفال عن المجتمع التعددى محاولين تطبيقه على هذه المجتمعات ، بينما تبنى بعض المهتمين بمجتمعات الشرق الأوسط رؤية كارلتون كرون عن مجتمع الموزايكا محاولين تطويرها وتطبيقها على البناء الاجتماعى المعاصر لهذه المجتمعات • وتبلورت بناء على ذلك مجموعة من الآراء النظرية التى شكلت الاتجاه الذى نعرض له فى هذا الفصل • وسوف أعرض فيما يلى للقضايا الأساسية التى تشكل الاطار النظرى لفكرية مجتمع الموزايكا التعددى •

ثانيا : القضايا الأساسية لنظرية مجتمع الموزايكا

ظهرت الأعمال التى ندرج تحت هذه النظرية - وكما هو واضح من العرض السابق - فى مجموعتين : أعمال الباحثين الذين اهتموا بمجتمعات افريقيا ومجتمعات جزر الهند الغربية ، وأعمال الباحثين الذين اهتموا بمجتمعات الشرق الأوسط • ومن الباحثين الذين ينتمون الى المجموعة الأولى م • ج سميت M. G. Smith وليوكيوبر Leo Kuper وفان دن برج Van Den Berghe وغيرهم ممن اهتم بمجتمعات افريقيا، أما المجموعة الثانية فتضم نيوفانهويزه Nieuwenhuijze وايليا حريق وغيرهم ممن اهتموا

بمجتمعات الشرق الأوسط (٢٥) ، وبرغم أن هاتين المجموعتين تعملان بشكل مستقل ، إلا أن الآراء التي ظهرت هنا وهناك متشابهة إلى حد كبير على ما سيظهر من العرض القادم ، الذي ينصب على إبراز آراء هؤلاء الباحثين حول القضايا الأساسية التي نهتم بها في هذا التحليل النظري :

- (أ) الرؤية العامة للبناء الاجتماعي لمجتمعات العالم الثالث ،
- (ب) شكل التدرج الاجتماعي والجماعات الطبقية داخل هذا البناء ،
- (ج) الطابع الذي يتشكل من خلاله البناء السياسي وجماعات الصفوة .

(أ) البناء الاجتماعي لمجتمع الموزايكا

يجمع أنصار هذا الاتجاه على أن مجتمعات العالم الثالث في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية تتسم بأنها مجتمعات متعددة الفئات multi-categorical فهي تضم تجمعات متفرقة من الأفراد تعيش داخل نطاق سياسي واحد . ويمكن جرهز التعددية في نظر سميث في وجود خلاقات عميقة الجنور بين افراد المجتمع ، تنبع أساسا من اختلاف ثقافتهم ، وأشكال ممارساتهم النظامية . وينعكس ذلك على البناء الاجتماعي فتتضح فيه مظاهر عدم الاستقرار ومظاهر الانشقاق (٢٦) . وأكد على نفس هذا الطابع نيو فانهويزم فيما يتعلق بمجتمعات الشرق الأوسط . فهذه المجتمعات لا تمتلك أبنية اجتماعية مستقرة طالما أن المجتمع يتكون من وحدات مستقلة ذات أبنية متوازية أكثر منها متفاعلة . ومصدر ذلك هو وجود خلاقات في العقيدة، واللغة

(٢٥) سوف أشير للجماعة الأولى بـ « مجموعة إفريقيا » وللجماعة الثانية « مجموعة الشرق الأوسط » ، مع الإشارة إلى اسم أي من الباحثين في كلتا المجموعتين .

(٢٦) M.G. Smith, «Institutional and Political Conditions of Pluralism» in L. Kuper and M.G. Smith (eds.) *Pluralism in Africa*, University of California Press, Los Angeles, 1969, p. 27.

والمنطقة الجغرافية التي تعيش فيها كل جماعة . ويتصف هذا المجتمع بأنه مجتمع مركب composite . وبعبارة أخرى فإنه مجتمع يتكون من وحدات تم تجميعها بجوار بعضها البعض ، بحيث تحافظ كل وحدة على تكاملها الداخلي ، واستقلالها الذاتي ، وحدودها ككيان ثقافي (٢٧) .

ويعتقد الباحثون من مجموعة افريقيا أن صياغتهم لمفهوم المجتمع التعددي تختلف عن صياغة فيرنفال من حيث أنها تقدم نموذجا أكثر مرونة وأكثر عهومية ، فضلا عن حيادية القيمي (٢٨) . ولقد جاء هذا الادعاء بالعمومية من التفرقة التي أقامها سميث بين ثلاثة مستويات للتعددية : التعددية الثقافية ، والتعددية الاجتماعية ، والتعددية البنائية . وتشير التعددية الثقافية الى وجود فروق ثقافية دون وجود انقسام جمعي في المجتمع . وعندما تلتقي هذه الفروق الثقافية مع الانقسامات الاجتماعية بين جماعات مغتلة فاننا نكون بصدد المستوى الثاني من التعددية . أما المستوى الثالث فإنه لا يشير فقط الى الانقسامات والخلافات التي توجد بين الجماعات الأساسية في المجتمع ، وإنما يشير أيضا الى مظاهر الانقسام والخلاف داخل كل جماعة على حدة (٢٩) . وفي ضوء هذه المستويات الثلاثة ، تعرف المجتمعات كلها درجة من درجات التعددية ، وتأتي الفروق بين المجتمعات في درجة الانقسام ومعدله . ويبدو أن سميث يريد هنا أن يلصق المستوى الثاني والمستوى الثالث للتعددية بمجتمعات العالم الثالث التي يبلغ فيها الشقاق

C.A.O. Van Nieuwenhuijze, *Social Stratification and The Middle East*, Leiden, Brill, 1965, pp. 9-10. (٢٧)

Leo Kuper, *Race, Class and Power*, Buckworth, 1974, pp. 239-240. (٢٨)

M. G. Smith, «Some Development in the Analytical Framework of Pluralism», in Kuper and Smith (eds.) *op. cit.*, p. 440. (٢٩)

عبد الجوامع العرقية مداه (٣٠) • فى حين توجد التعددية بمعناها الأول فى المجتمعات الغربية المتقدمة واللى تعنى النسبية الثقافية ، وهى نمطا مثاليا يجب أن تصبو المجتمعات التى تعرف أشكالا مغايرة للتعددية الى الوصول اليه .

وتقترب مجموعة الشرق الأوسط من هذا الموقف السابق • فتقسيم العمل العرقى الذى أبرزه كارلتون كون ليس المصدر الأساسى للتعددية فى مجتمع الموزايكا ، بل هناك أيضا الخلافات الدينية واللغوية والجغرافية فضلا عن الصراع على السلطة • وتتوازى هذه الانقسامات جميعا بحيث اذا ظهرت لدى جماعة خاصية عرقية معينة تظهر لديها خصائص أخرى كأن تحدث لغة معينة وتعيش فى نطاق جغرافى معين وتدين بدين معين (٣١) • ولكن مجموعة الشرق الأوسط قد أكدت على صياغة كارلتون كون فيما يتعلق بالوحدات الأساسية التى يتكون منها البناء الاجتماعى والانقسامات التى تعرفها هذه الوحدات • فقد فرق نيوفايهويزه بين نوعين أساسيين من الانقسامات فى مجتمعات الشرق الأوسط • النوع الأول : هو الانقسامات الأفقية بين الوحدات الأساسية التى يتكون منها المجتمع (المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى والمجتمع البدوى) ، والنوع الثانى : هو الانقسامات الرأسية داخل كل وحدة من هذه الوحدات • وأهم هذه الانقسامات الرأسية

(٣٠) يؤكد بعض الباحثين من مجموعة افريقيا أن مجتمعات افريقيا تعرف التعددية بمستوياتها الثلاثة • منهم على سبيل المثال على مازروى Ali Mazrui الذى ذهب الى القول بأن أوغندا يمكن أن تؤخذ كمثال طرازى على وجود التعددية بمستوياتها الثلاثة العرقية والثقافية الدينية والاجتماعية • انظر :

Ali Mazrui «Pluralism and National Integration» in Ibid.
p. 332.

Iiya Harik, «The Ethnic Revolution and Political Inte- (٣١).
gration in the Middle East», I.J.M.E.S. Vol. 3, 1972, pp.
306-8.

هو الانقسام بين الصفرة والجمهير ، وهو انقسام يظهر داخل كل وحدة.
من مكونات البناء الاجتماعى ، وداخل البناء الاجتماعى برمته (٢٢) .

ويتضح من هذا أن هناك إجماعاً بين أنصار هذا الاتجاه على الخصائص العامة التى تميز البناء الاجتماعى فى مجتمع الموزايكا التعددى ، تلك الخصائص التى تنحصر فى عدم التجانس وعدم التكامل وعدم الاستمرارية وسيادة مظاهر الشقاق والخلاف بين الجماعات التى تكون البناء الاجتماعى . والمحقق أن أنصار الاتجاه الوظيفى التعددى قد أكدوا كل هذه الخصائص ، غير أن الخلاف بينهم وبين أنصار نظرية مجتمع الموزايكا ينحصر فى أنهم قد أرجعوا هذه الخصائص الى تباين مكونات البناء الاجتماعى الناتج عن استجابة هذا البناء للثقافة الحديثة والنظم الحديثة ، وبهذه الطريقة أصبحت ظاهرة الانقسام العرقى ظاهرة لاحقة epiphenomenon وتحليلاتهم . أما أنصار نظرية مجتمع الموزايكا فإنهم يعتبرون ظاهرة الانقسام العرقى ظاهرة أصلية وجوهرية sui-generis فى البناء الاجتماعى للمجتمعات النامية ، ومن ثم فإنها السبب الكامن خلف أى مظهر للانقسام وعدم التكامل والاستمرارية فى هذه المجتمعات . ومع ذلك فإن هناك مصدراً للتشابه بين شقى الاتجاه التعددى يرتبط بتحول نمط معين من المجتمع التعددى الى نمط آخر يصور على أنه نمط مثالى . فقد لاحظنا فى الفصل السابق أن الصورة المثلى التى يجب أن تتحول إليها المجتمعات النامية هى صورة المجتمع التعددى الديمقراطى ، ويتضح هنا أن أنصار نظرية مجتمع الموزايكا يميلون الى المقارنة بين المجتمعات التى تتوازى فيها الانقسامات العرقية مع الانقسامات الثقافية والاجتماعية ، وتلك التى لا تظهر فيها مثل هذه الانقسامات والتى تتكامل فيها الجماعات العرقية مع وجود قدر من النسبية الثقافية ، وهذه هى الصورة المثلى للمجتمع التى يجب على مجتمع الموزايكا

أن يتوق الى الوصول اليها ، وتتجسد هذه الصورة المثلى في المجتمعات الغربية الديمقراطية . ويدل ذلك على أن المنطلق الايديولوجي لكلا الاتجاهين واحد ، برغم اختلاف بعض الأسس المعرفية لكل منهما .

ب) التدرج الاجتماعي والجماعات الطبقيّة :

طالما أن المجتمع التعددي هذا يقوم على الانقسام العرقي ، فإنه يترتب على ذلك أن يكون للتدرج الاجتماعي داخله طابع خاص ، يرتبط بطابعه التعددي . فمن الطبيعي أن يؤكد الباحثون هنا على وجود خطوط للتدرج الاجتماعي لا تقوم على أساس طبقي ، بل تقوم على أساس عرقي ، حيث يظهر نوع من التوازن بين التكوين الطبقي للمجتمع وتكوينه العرقي . وفي هذه الظروف ، فإن تحول المجتمع وتحديثه وتكامله يرتفع بظهور نسق للتدرج الاجتماعي الطبقي داخل هذا المجتمع بحيث تظهر خطوط للانقسام غير تلك القائمة على العرق .

ومن هذا المنطلق العام يذهب ليوكيوير - من مجموعة افريقيا - الى أن المواجهة الرئيسية في المجتمع التعددي ليست مواجهة بين الطبقات ، وإنما بين جنس race مسيطر وجنس أو أجناس خاضعة . وهذا هو السبب وراء عدم تضامن الطبقة العاملة في هذه المجتمعات ، ووراء الخلافات الحادة التي تظهر بين أعضائها . فهذه الطبقة تتكون من جماعات عاملة من أجناس مختلفة أو جماعات سلالية مختلفة تكن العداء لبعضها البعض الآخر . والظاهر أن ليوكيوير يرفض مفهوم الطبقة كمقولة تحليلية لهذه المجتمعات حيث كتب يقول :

« إن التأكيد على الطبقة مقبول تماما ومن وجهة النظر السياسية ، والايديولوجية . . . أما على مستوى النظرية . . . فإن مفهوم الجنس والطبقة

يختلفان إلى حد كبير . ومن الصعب أن نفهم التبرير الكامن خلف اعتبار المفاهيم المرتبطة بالطبقة مفاهيم حاسمة ، (٢٣) .

وبناء على ذلك يرفض كيوبر نظام التدرج الاجتماعي القائم على الطبقة ويستبدله بالتدرج القائم على العلاقات العرقية . ويصبح ذلك الأخير متغيرا ذا دلالة عندما يتحول إلى مبدأ تفتظم حوله النظم السياسية الاجتماعية (٢٤) . وفي هذه الحالة يتحدد التدرج الاجتماعي من خلال العلاقات بين الجماعات العرقية ، وتتحول علاقات المكانة والطبقة إلى مرتبة أدنى .

ومع ذلك ، فإن بعض أعضاء جماعة افريقيا يميلون إلى إضافة العلاقات الطبقة كمصدر آخر من مصادر الانشقاق في المجتمعات التعددية . فقد كتب فان دن برج يقول : « أفضل النظر إلى التعددية كمتغير يشتمل على مظاهر للتدرج قائمة على « الجنس » أو « الطائفة » أو الطبقة المغلقة أو الطبقة . . . وطالما أن الطبقات تعد بمثابة جماعات متكاملة Corporate groups فانها سوف

تطور بعض الخلافات البنائية فضلا عن وجود بناء تنظيمي خاص يرتبط بكل طبقة ، (٢٥) . ويبدو أن ظهور التدرج الطبقي في المجتمع التعددي الذي تقوم التعددية فيه على الانقسام العرقى ، يرتبط بتحول هذا المجتمع من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث . وبرغم أن ظهور التدرج الطبقي يعمل كأداة تكاملية حيث يجتمع - في طبقة واحدة - أفراد من جماعات سلالية مختلفة ، إلا أن الطبقة لا تعد مقولة تحليلية ذات أهمية طالما أن هؤلاء الأفراد يظهرون من الولاء لجماعتهم العرقية أكثر مما يظهرونه للطبقة التي ينتمون إليها . ولا تصبح الطبقة مقولة تحليلية إلا إذا تعدى الولاء لها - أو توازى على الأقل مع - الولاء للجماعة العرقية .

Leo Kuper, 1974, p. 224.

(٢٣)

Ibid., p. 224.

(٢٤)

Van Den Berghe, «Pluralism and Polity : A Theoretical

(٢٥)

Explanation», in Kuper and Smith (eds.) op. cit., p. 68.

وتتميل مجموعة الشرق الأوسط الى تبني وجهة نظر مشابهة فالفكرة الأساسية التي يدور حولها رأى فان نيوفانهويزه تتركز حول القول بأن مجتمعات الشرق الأوسط لا تعرف التدرج الطبقي بسبب التعددية الضاربة بجنورها في هذه المجتمعات ، والتي تقوم على الانقسام السلالي واللعوى والعرقى والاقليمى (٢٦) . والنمط التدرجى الذى تعرفه هذه المجتمعات هو ذلك النمط القائم على الانفصال بين الصفوة والجماهير (٢٧) . ويظهر ذلك الانقسام على المستوى القومى ، وعلى مستوى كل وحدة اجتماعية من الوحدات المكونة للبناء الاجتماعى . ويظهر هذا النمط من التدرج بسبب عاملين رئيسيين (٢٨) :

الأول : انه بالرغم من وجود ارهاصات بداية تكون طبقة وسطى في مجتمعات الشرق الأوسط ، الا ان هذه الطبقة لم تظهر بعد بشكل يجعلنا نصفها بأنها طبقة مستقلة . وتتمثل ارهاصات هذه الطبقة في طبقة «الافندية» ، وفئات الفنيين والبيروقراطيين والمثقفين ، وهى فئات لم تتشكل بعد بشكل جيد ، ولم تحقق أى منها أى قدر من التماسك الداخلى .

الثانى : ان مجتمعات الموزايكا التعددية التى تتكون من فئات مشننة لاتتشكل

(٣٦) لما كان نيوفانهويزه قد عنون مقاله المطول « التدرج الاجتماعى والشرق الأوسط » فانه ذهب الى القول بأنه كان من الافضل له أن يبحث عن كلمة أخرى غير كلمة التدرج لانها لا تصدق مائة بالمائة على الشكل الذى يتشكل به المجتمع فى الشرق الأوسط ، ولعدم وجود مفاهيم بديلة ، فقد قرر استخدامها مع قدر كبير من التحفظ والحذر . انظر مقاله السابق الاشارة اليه ، ص ١١ .

(٣٧) استخدم نيوفانهويزه مفهوم « صفوة القوة » ، غير أنه لم يستخدمه بنفس استخدام رايت ميلز ، من حيث أن صفوة القوة عند نيوفانهويزه ، قد تكون اقلية سلالية .

Nieuwenhuijze, op. cit., pp. 25 ff.

(٣٨)

ففيها طبقة عاملة • ولقد اورد نيوفانهويزه الاسباب التالية لعدم تشكل هذه الطبقة في مجتمعات الشرق الأوسط :

(١) سوف لا يؤدي انتشار التكنولوجيا الى احداث استقطاب في المجتمع البدوى • وحتى اذا حدث هذا الاستقطاب بين طبقة البروليتاريا وبين طبقة البرجوازية ، فان الاولى لن تثور على الثانية التي تمثل صفوة القوة القائمة والتي تستمد قوتها من اطر تقليدية •

(ب) يبدو الموقف في القرية وكأنه يحمل بين طياته عناصر من العبودية - Serfdom • فعلاقة الفلاحين بكبار الملاك لا تقوم أصلا على علاقة عدا و إنما تقوم على علاقة ولاء •

(ج) ان الجماهير الغنيرة الموجودة في المدن ليسوا عمالا في تركيبهم العقلي ، وان كانوا يعملون في مهن عمالية ولقد كانت هذه الجماهير موجودة منذ امد بعيد حتى قبل الصناعة الحديثة •

ويبدو الأمر هنا وكأن نيوفانهويزه يحاول ان يربط بين ظهور الطبقة الوسطى وبين حدوث الاستقطاب • وكان تبلور الاستقطاب الطبقي يفرض ظهور فئة وسطى وهو أمر يلغى فكرة الاستقطاب ذاتها • وعلى أية حال فانه يسعى هنا الى اثبات فكرته الأساسية عن الانفصال بين الصفوة والجماهير فالصفوة لم تتحول الى طبقة عليا ، ولم تتطور من بين صفوف الجماهير طبقة عاملة توجه التدرج في خط مغاير • على ان اشارة نيوفانهويزه الى ارهاصات وجود الطبقة الوسطى قد يفسر على ان هذه الطبقة الجديدة هي التي ستخلق الاستقطاب وتكون أحد أطرافه • ففي الوقت الذي تتشكل فيه هذه الطبقة ، فان الصفوة التقليدية ستترك لها زمام الأمور ، وتصبح الطبقة الوسطى بمثابة صفوة جديدة حاكمة •

ويرتبط نمو الطبقة الوسطى بتحول المجتمع من اطاره التقليدى الى

الاطار الحديث ، وان كان هذا النمو للطبقة الوسطى لا يلغى الانفصال التقليدى بين الصفوة والجماهير ، ولا يلغى تماما الطابع التعددى لمجتمع الموزايكا . وقد ذهب ايليا حريق هذا المذهب فى دراسة حديثة عن التعبئة السياسية فى الريف المصرى (٣٩) . يوافق حريق على رأى نيوفانويزه المتعلق بالانقسام بين الصفوة والجماهير ، الا أنه يقرر أن مجتمعات الشرق الاوسط قد عرفت بعض قطاعات الطبقة الوسطى . فغيما يتعق بالمجتمع القروى - على سبيل المثال - نجد أن ظهور ملاك الأرض ، وتجار الحاصلات الزراعية الذين أصبحوا أكثر ارتباطا بامراكز الحضرية ، الى الجانب تغيرات أخر (مثل تحوّل معظم السكان الى زارعين بالمشاركة ، ومؤجرين وعمال زراعيين وصغار ملاك) كل هذه الظروف أدت الى خلق نسق للتدرج الاجتماعى داخل القرية تحتل فيه الفئات الوسطى مكانا بارزا (٤٠) . ولقد ترتب على ذلك - ضمن تغييرات أخر - أن أصبح الريفى أكثر تكاملا مع المجتمع الحضرى ، ومع الاطار القومى بعمامة . ومع ذلك فان ظهور التدرج الطبقي لا يلغى الطابع الاساسى لمجتمع الموزايكا القائم على الانقسام الاقليمى والسلالى والقبلى ، بل انه يضيف عنصرا جديدا الى هذا الطابع ، بحيث تصبح مظاهر الانقسام أكثر تعددا ، وتصبح عملية فرض الوحدة على هذا التعدد أمرا ضروريا ، على ما سنرى فيما بعد .

(ج) البناء السياسى وجماعات الصفوة :

لاشك ان بناء اجتماعيا بهذا الشكل المتعدد يفرض مشكلة نظام ملحة . فلكى تشكل هذه الوحدات المكونة للبناء الاجتماعى مجتمعا لابد ان يحدث بينها قدر من التكامل يجعل قيام المجتمع أمرا ممكنا . فما الذى

I. Harik, *The Political Mobilization of Pesants : A Study of an Egyptian Community*, Indiana University Press, Bloomington and London, 1974.

Ibid., p. 18.

(٤٠).

يحق هذا التكامل داخل مجتمع الموزايكا اذن ؟ يكاد الدارسون يجمعون على ان مجتمع الموزايكا يحقق تكامله - على المستوى القومي والاقليمي على حد سواء - من خلال قوة خارجية قهرية ، تتمثل في جماعة صفوة • غير ان رؤية طبيعة هذه الصفوة والشكل الذي تتكون من خلاله تختلف من مجموعة الى اخرى •

فمجموعة افريقيا تفرق بين مجتمع الموزايكا التعددي اللامتجانس وبين المجتمع التعددي المتجانس • ففي هذا الأخير يقوم النظام الاجتماعي العام على ما يطلق عليه سميث الاندماج المتماثل uniform incorporation ، أما في مجتمع الموزايكا فان النظام الاجتماعي العام يقوم على الاندماج المتوازي أو التبايني equivalent or differential incorporation • وفي مثل هذا المجتمع لا تقوم النظم السياسية على التكامل • وانما تقوم على التنظيم regulation بمعنى أن النظم السياسية لا تنتج من طابع تكاملي كامن في بناء المجتمع ذاته ، وانما تظهر أساسا لتحقيق هذا التكامل • ويترتب على ذلك أن تؤمن على هذه النظم صفوة معينة • وتتكون هذه الصفوة في الغالب من اقلية عرقية متميزة ثقافيا ، Culturally distinct numerical minority وهي كجماعة مشتركة لها مطلق الحرية في حفظ النظام • وطالما أن سكان مجتمع الموزايكا التعددي لا يعتبرون مواطنين تحت حكم هذه الصفوة ، وانما خاضعون ، فان الدولة في هذه الحالة لا تعبر عن رأي جمعي ، وانما تعمل بمثابة هيكل خارجي من صنع الجماعة المسيطرة (٤١) • وطالما أن الصفوة الحاكمة أو الاقلية الحاكمة تستمد شرعيتها من وجود الانقسامات في المجتمع التعددي ، فان استمرارها يرتبط باستمرار هذه الانقسامات (٤٢) • وكأن استمرار الانقسامات يعمل كمستلزم أساسي لاستمرار الاقلية في الحكم •

M. G. Smith, «Institution & op. cit., pp. 32-33

(٤١)•

Ibid., p. 54.

(٤٢)•

وذلك لأن هذه الاقلية ما هي الا أحد الجماعات الثقافية المتميزة التي تتمتع،
بنفوذ اقتصادى وسياسى . هذا فضلا عن أن تحول المجتمع يجب أن يسير
نحو التكامل القائم على الاندماج المتماثل حيث تصبح كل الجماعات العرقية
على قدم المساواة وحيث يصبح النظام السياسى نتيجة طبيعية للتكامل ،
وليس أداة لفرضه .

وينفق نيوفانهويزه مع سميث على سيطرة الصفوة على الجهاز
السياسى فى مجتمع الموزايكا ، غير أنه يختلف معه حول طبيعة هذه الصفوة
أو الجماعة المسيطرة . فهي عنده أغلبية متميزة ثقافيا ، وليست أقلية متميزة
ثقافيا . فالجماعة العرقية التي تمثل الاغلبية الديموجرافية فى المجتمع هي
التي تسيطر على مقدرات النظام السياسى (٤٢) . ولأن هذه الجماعة العرقية
المسيطرة تعتبر أغلبية ديموجرافية ، فإنها لا تشكل جميعها الصفوة الحاكمة
أو صفوة القوة ، وإنما تنحدر تلك الأخيرة من الاغلبية الديموجرافية التي
تكون الجماعة العرقية المسيطرة (٤٤) . ويتضمن ذلك القول بأن بقية
الجماعات العرقية تتحول الى مجرد اقليات داخل مجتمع الموزايكا التعددى .
وتصبح مهمة الصفوة خلق التكامل بين وجود هذه الاقليات وبين وجودها
كمدافع عن مصالح الاغلبية الديموجرافية فى المجتمع . هذا فضلا عن تحقيق
التكامل بين وحدات البناء الاجتماعى المنعزلة : المجتمع البدوى ، والمجتمع
الريفى ، والمجتمع الحضرى ، وتحقق الصفوة هذا التكامل من خلال السيطرة
التي تتبدى فى استخدام القوة الفيزيائية force ، غير أنها تحاول فى
ذات الوقت خلق ضرب من ضروب التوازى الثقافى - الاجتماعى بين الكيانات

Nieuwenhuijze, op. cit, p. 9.

(٤٣)

(٤٤) ولقد اقترب نيوفانهويزه هنا من صياغة سميث حيث ذهب الى أن
هذه الصفوة تتحول فى الممارسة العملية الى أقلية عددية ولكنها أقلية
عددية لا تمثل جماعة عرقية متميزة ، وإنما تنحدر من الجماعة التي
تكون الاغلبية الديموجرافية فى المجتمع .

المكونة للمجتمع . ومن أهم سمات جماعة الصفوة هذه أنها فئة مستهلكة ، وليست منتجة ، فهي تقوم بتقديم خدماتها في المحافظة على النظام العام في المجتمع نظير حصولها على جانب من ثروة المجتمع (٤٥) . ولكن ذلك لا يعني أن الصفوة جماعة متكاملة في حد ذاتها ، انها تخضع كجماعة لقاعدة المجتمع التعددي ، فيظهر بين أعضائها تنافس للحصول على الثروة .

ولكن تركيب الصفوة في مجتمع الموزايكا قد يتجاوز مرحلة سيطرة الصفوة المنحدرة من الاغلبية الديموجرافية ، بحيث يعكس التركيب العرقي في المجتمع . ويحدث هذا عندما يحقق المجتمع التعددي درجة ملحوظة من التكامل . فقد ذهب ايليا حريق في حديث عن المجتمع اللبناني - وهو عنده نموذج لما يجب أن تكون عليه مجتمعات الشرق الأوسط - الى أن الثورة في مجال الاتصال فضلا عن نشأة الدول الحديثة قد أدت الى كسر نمط الموزايكا القائم حيث خلقت هذه الظروف صفوة عمقت الانفصال التقليدي بين الصفوة والجماهير ، وعمقت في ذات الوقت وعيها بهويتها ، الأمر الذي أدى الى مزيد من الانقسام في مجتمع الموزايكا . ومن ناحية أخرى لم تؤد الحركات القومية الى تحقيق التكامل في مجتمع الموزايكا ، بل عمقت الخلاف من زاوية جديدة تتعلق بالصراع الفكري والايديولوجي . وفي هذه الظروف لابد أن يتحقق التكامل من خلال توازن بين الجماعات العرقية المختلفة الموجودة في المجتمع . ويتم ذلك عن طريق ضرب من ضروب الهندسة الاجتماعية يتم من خلاله تمثيل كل الجماعات العرقية - بنسب مختلفة - في الصفوة الحاكمة . وفي هذه الحالة تصبح الصفوة انعكاسا للمجتمع وليست شيئا مفروضا عليه من الخارج . والمثال الطرازي على هذا النوع من الهندسة الاجتماعية هو نظام الحكم في لبنان الذي يقوم على التوازن بين المسلمين والمسيحيين

كجماعتين عرقيتين رئيسيتين في المجتمع اللبناني وهو مثال يجب أن يحتذى في كل مجتمعات الشرق الأوسط (٤٦) .

ويشير حديث ايليا جريق هنا نقطة أخرى تتصل بتصور انصار نظرية مجتمع الموزايكا للصورة المثلى التي يجب أن يتحول اليها مجتمع الموزايكا . المحقق أن صورة المجتمع الغربي الذي حقق قدرا كبيرا من التجانس والتكامل هي الصورة المثالية والمعيارية التي يجب أن يصل اليها مجتمع الموزايكا . ولقد اهتمت مجموعة افريقيا أكثر من مجموعة الشرق الأوسط بالحديث عن النمط المثالي الذي يجب أن يصل اليه المجتمع التعددي . وقد أشرت من قبل الى التفرقة التي أقامها سميث بين النظام العام الذي يقوم على الاندماج المتماثل وذلك الذي يقوم على الاندماج المتوازي . ويمثل النمط الأول الصورة المثالية التي يجب أن يتحول اليها النمط الثاني . ويتم ذلك من خلال مجموعة من الاجراءات أهمها قبول فكرة المساواة السياسية والاجتماعية كجزء من النظام القائم ، والتقليل من الامتيازات الممنوحة لجماعات عرقية معينة ، واعطاء فرص متساوية لكل المجموعات الثقافية في المجتمع ، وأولا وأخيرا نشر الافكار المتصلة بالحرية والديموقراطية (٤٧) . وبنفس الطريقة يؤكد ليوكيوبر على تحول المجتمعات التعددية من مجتمعات لا تعرف الاستمرارية والمساواة الى مجتمعات مستقرة مستمرة العلاقات بها قدر كبير من المساواة بين جماعاتها العرقية المختلفة ، الأمر الذي يؤدي الى تحول البناء السياسي من بناء يقوم على فرض القوة فرضا الى بناء يقوم على توزيع القوة (٤٨) . وبعبارة فان دن برج فان هذه المجتمعات التعددية يجب أن

I. Harik, «The Ethnic Revolution», op. cit., p. 306 (٤٦)

M.G. Smith, «Institutional op. cit, p. 60. (٤٧)

Leo Kuper, «Ethnic and Racial Pluralism», op. cit., pp. 469-79. (٤٨)

تتحول من النظم القائمة على الاستعباد Despotie الى نظم تعرف
صورة من صور الحكم الديموقراطى (٤٩) .

أما جماعة الشرق الأوسط فانها تنظر الى الموضوع من زاوية أخرى .
حقيقة أنها تعتبر المجتمعات الغربية المتقدمة بمثابة النمط المثالى للمجتمعات
الذى يجب أن تصل اليه مجتمعات الموزايكا . ولكن نجد أن نيوفانهويزه
يؤكد على استمرارية الطابع التقليدى لمجتمعات الشرق الأوسط، برغم دخول بعض
العناصر الحديثة . وكان أمام هذه المجتمعات طريقا طويلا قبل أن تصل
الى الصورة المثلى التى يظهر فيها نوع من التدرج الطبقي ونوع من النظام
السياسى الذى لا تتحكم فيه الصفوة . غير أن بعضهم مثل ايليا حريق
يهتم بدخول العناصر الثقافية الحديثة الى هذه المجتمعات وتأثيرها على
نظام الموزايكا القائم على ما رأينا منذ قليل . وإذا كان حريق يرى فى تحول
النظام السياسى الى الاطار الديموقراطى نمطا مثاليا يجب أن تصبو اليه
مجتمعات الموزايكا ، الا أن الديموقراطية فى هذه المجتمعات لا يمكن أن تقوم
على اساس التنافس الحربي بين جماعات متعددة كما هو الحال فى المجتمعات
الغربية ، وانما تقوم على شكل من اشكال الهندسة الاجتماعية لتحقيق التوازن
بين الجماعات العرقية المختلفة . انها ديموقراطية من نمط خاص فى مجتمع من
نمط خاص .

على أن الشيء الذى يجب أن نلتفت اليه الآن هو مدى انعكاس هذه
الافكار النظرية على البحوث الامبيريقية ، التى أجريت فى المجتمعات
الريفية فى العالم الثالث ومدى امتداد تأثير هذه النظرية الى البحوث التى
تجرى على القرية المصرية بصفة خاصة .

ثالثا : اتجاهات البحث الامبيريقى حول جماعات الصفوة فى الريف
اتجه البحث الامبيريقى الذى يتخذ من نظرية مجتمع الموزايكا التعددى
اطارا مرجعيا ، اتجه اتجاهين رئيسيين : الاول هو التأكيد على الانقسام

العرقى في المجتمعات المحلية ، وإبراز الارتباط القائم بين السيطرة السياسية والانتماء الى أقوى الجماعات العرقية القائمة أو أقوى البعثات في حالة التركيز على الانقسام بين قبائل أو بعثات مختلفة داخل المجتمع . أما الاتجاه الثانى فقد اهتم بمشكلات التكامل داخل مجتمع الموزايكا المتعدى . وتتراوح مجالات الاهتمام هنا بين التشكيك في امكانية قيام تكامل في مثل هذا المجتمع الانقسامى وبين من يؤكدون امكانية قيام هذا التكامل سواء من خلال الحراك الاجتماعى أو من خلال فرض نسق قيمى مركزى يستهدف تعبئة الاقاليم الريفية المنعزلة سياسيا وضمها الى الاطار الاقليمى . ونعرض فيما يلى لأمثلة من البحوث الامبيريقية التى ظهرت تحت هذين الاتجاهين :

(١) الصفوة والانقسام العرقى :

لاشك أن الاهتمام بالربط بين هيمنة الصفوة وبين أقوى الجماعات العرقية يضرب بجذوره في بدايات نظرية مجتمع الموزايكا . فدراسات فيرنفال على مجتمعات جنوب شرق آسيا تعد بمثابة بحوث امبيريقية تؤكد هذه الفكرة . كما أن دراسة كارلتون كون عن مجتمعات الشرق الأوسط تحوى الكثير من البيانات الامبيريقية التاريخية التى تؤكد فكرة تقسيم العمل العرقى . وبالتالي تقسيم المكانات ومجالات النفوذ . ولقد تأكدت الفكرة من خلال بعض الاشارات الامبيريقية للباحثين الذين طوروا هذا الاتجاه في شكله النظرى . ولقد ظل هذا الاهتمام قائما حتى وقت قريب برغم ظهور الاهتمام بمشكلات التكامل داخل مجتمع الموزايكا بدلا من مشكلات الانقسام . ولقد اتضح ذلك من خلال مجموعة من الدراسات نشرت عام ١٩٧٠ عن « جماعات الصفوة في جنوب آسيا » (٥٠) . وتهتم احدى هذه الدراسات بتركيب الصفوة

E. Leach and S. Mukherjee (eds.) *Elites in South Asia*, (٥٠). Cambridge, At the University Press, 1970.

حاولت هذه الدراسة أن توضح الارتباط بين البناء الطائفى القائم وبين البناء الطبقي ، وانحدار الصفوة السياسية من أقوى الطوائف وأشدها هيمنة على الأرض • وبرغم انتشار التعليم والنظام البرلمانى الديموقراطى ، الا أن العلاقات بين الطبقات وبين الطوائف لم يتغير كثيرا • بل أن الطوائف المسيطرة استغلت الحداثة فى احكام سيطرتها أكثر وأكثر على القرى وذلك من خلال ارسال اولادها الى المدارس ودفعهم الى حلبة الصراع الديموقراطى • ويطلق على الشخص الذى يحتل مركزا مؤثرا وسلطة مؤثرة لفظ « الدور » *dora* وهو لفظ يعنى « السيد » أو « اللورد » • ولكى يستحق الشخص هذا اللقب لابد أن يكون له سيطرة على الافراد والملكية • وهو يكتسب سلطته هذه بحق الولادة ، وهو من احدى الطوائف المسيطرة وأقواها ان لم تكن أشدها قوة على الإطلاق • ويقوم الافراد الذين يأخذون هذا اللقب بالخدمات التنفيذية فى القرية • وهم يمثلون الصفوة السياسية التى تحقق التوازن بين الطوائف جميعا • وغالبا ما يكون « الدور » مالكا للأرض ، ومقرضا للنقود *money lender* ، وموظفا بالقرية ، وممثلا للحكومة ، ورجل سياسة • وتكون مهمة الصفوة من هؤلاء الناس تسوية الخلافات التى تنشأ بين القرى ، والتى تنشأ بين الطوائف فى القرية الواحدة • وهى تستعين فى ذلك بشخص كبير السن من كل طائفة ، فضلا عن استدعاء بعض كبار السن من المحايدين • وتتميز الدور عن بقية الفلاحين فى مساكنها وأسلوب حياتها • وهم يختلطون بعضهم ببعض الآخر ، وقلما يختلطون بالآخرين من الطوائف الآخر • ولا يدخل أى فرد من الدور منازل الفلاحين ، وهو يتصل بهم - ان أراد - من خلال وسيط • ولم تؤد الديموقراطية الى ادخال طوائف آخر الى نطاق الممارسة السياسية • فالفقريون يصوتون للدور

Hugh Gray, «The Landed Gentry of the Telengana, (٥١)
Andhra Pradesh» in Ibid.

تحت تأثير كبار السن من كل طائفة ، الذين يتم التفاوض معهم من جانب الدور قبل كل انتخاب ، والاتفاق على أخذ جميع الأصوات . وقد حلل الباحث نتائج انتخابات ١٩٥٢ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٢ ووجد السيطرة الكاملة للدور في هذه الانتخابات الثلاثة ، الأمر الذي يشير إلى السيطرة المطلقة لها .

ولقد أكد بعض المهتمين بدراسة المجتمع المصري على الربط بين السيطرة على النظام السياسى والتحكم فى الممارسة السياسية وبين أقوى العائلات أو البدنات فى القرية . واتضح ذلك - على سبيل المثال - من خلال دراسة هارولد برايسلى Harold Braclay على قرية مصرية عام ١٩٦٦ (٥٢) : وهى دراسة مونوجرافية لقرية « كوم العرب » التابعة لمحافظة الجيزة ، وهى قرية تعرف نظاما انقساميا بين مجموعة من البدنات . وفى حديثه عن النظام القربى والنظام السياسى فى القرية ذهب برايسلى إلى القول بأنه من الصعب أن نعثر على طبقات اجتماعية فى هذه القرية ، فالترجى يقوم على تدرج لجماعات المكانة التى ترتبط بهيبة ومرتبة كل بدنة من البدنات المكونة للقرية . وتحدد الهيبة النسبية للبدنة من خلال قدرة أفرادها على أن يفرضوا إرادتهم على الآخرين . فالبدنة التى تكسب المعارك التى تنشأ مع البدنات الأخرى تستطيع أن تحتل مكانة أعلى من البدنة التى تنهزم فى هذه المعارك (يتضح هنا محاولة فصل المكانة عن أصولها الاقتصادية) . ووفقا لهذا الميكانيزم يوجد فى قرية « كوم العرب » اثنتان من البدنات ، تعدان أقوى وأعنف البدنات الموجودة . ولا تلعب الثروة دورا كبيرا فى تحديد مراتب البدنات ، غير أن الواقع يكشف عن أن أكثر العائلات احتراماً وهيبة هى أكثر العائلات امتلاكاً للبعد والأرض . وتسيطر أقوى العائلات على النظام السياسى فى القرية ، فمنها عمدة القرية محرر هذا النظام . وقد كشفت الدراسة عن أن منصب

H. Braclay, «Study of An Egyptian Village Community», (٥٢)
Studies in Islam, Vol. 3. No. 3-4, 1966.

العمدة قد ظل في أسرة واحدة طيلة ثلاثة أجيال متتالية . ويتم حل الخلافات التي تنشأ داخل كل بدنة من خلال قانون عرفي يطبقه الكبار ، أما الخلافات التي تنشأ بين البدنات - والتي قد تؤدي إلى انهيار حقيقي في نظام القرية - فإنها تحل من خلال وساطة يقوم بها أحد كبار البدنة المسيطرة ، الذي يستعين بمعاونين من كبار السن في البدنات الأخرى ، وغالباً ما يتم فرض عقاب مالي على البدنة المعتدية . ويهدف النظام السياسي والممارسة السياسية إلى خلق توازن بين البدنات المنقسمة ، وكان وجود هذا النظام وتلك الممارسة يعد بمثابة شرط ضروري لتحقيق التكامل في هذا المجتمع الإنقشامي .

(ب) مشكلات التكامل في مجتمع الموزايكا :

لا شك أن مجتمع الموزايكا يعرف شكلاً تقليدياً للتكامل يقوم على تحقيق توازن بين مكوناته البنائية من خلال سلطة أقوى جماعاته العرقية . ولكن مع تحول هذا المجتمع إلى الصورة الحديثة بناءً على احتكاكه بثقافات أخرى ، أهمها على الإطلاق الثقافة الغربية ، بدأ هذا الشكل التقليدي للتكامل في الانهيار . وكان على الوحدات الريفية المنعزلة أن تندمج في الإطار القومي ، وكان على كل جماعة عرقية أن تتخلى عن تعصبها الإقليمي والثقافي بحيث يتحقق قدر من التجانس البنائي - الثقافي في المجتمع . وفي هذه الظروف بدأ البحث الأمبيريقى يتجه نحو دراسة مشكلات هذا التكامل ، والأساليب المستخدمة في تحقيقه .

واتجهت بعض هذه الدراسات إلى التشكيك في إمكانية تخطي الجماعات العرقية عن هويتها وفي إمكانية ربط القرى بالإطار القومي . من هذه الدراسات دراسة روبرت تايس Robert Tice عن ساحل العاج (٥٢) . يشكك هذا

Robert Tice, «Administrative Structure, Ethnicity, and Nation-Building in the Ivory Coast», J.M.A.S., Vol. 12, No. 2, 1974 pp. 211-229.

الباحث في امكانية قيام تكامل في مجتمعات افريقيا ، ويؤكد على انه بالرغم من تأكيد بعض الباحثين على انحسار الانقسامات السلالية أمام التكامل الذي صاحب ظهور الدول الحديثة ، الا ان الواقع وأنماط التفاعل القائمة فيه لا يكشفان عن وجود مثل هذا التكامل . ويضرب الباحث مثالا لذلك من قرية Djakoteti التي ظهر داخلها انتماء عميق للثقافة القبلية - العرقية السائدة فيها الى درجة ان بعض سكانها ليس لديهم وعى بوجود شيء يسمى « ساحل العاج » . ويستخلص الباحث من دراسته انه بالرغم من الجهود المستميتة التي تبذلها الحكومة لتجاوز الانقسامات العرقية والقضاء عليها ، الا ان الواقع يكشف عن ان اهل القرى يتوحدون مع نظمهم وثقافتهم الاقليمية ، وليس لديهم أدنى ميل للتوحد مع السطة المركزية الجديدة . وعلى نفس النوال نسجت دراسة أخرى اهتمت بدرجة تكامل جماعة الايبو Igbo كجماعة عرقية في مجتمع نيجيريا (٥٤) . ويهتم الكاتب هنا بما يطلق عليه « دياسبورا » Diaspora الايبو (اى انتشارهم وتكاملهم مع المجتمع النيجيري من خلال الهجرة الداخلية التي تتحكم فيها عوامل الطرد والجذب التي تميز بلدان العالم الثالث) . وبرغم تزايد الهجرة الداخلية للايبو الا انهم لا يتخلون - اينما كانوا - عن هويتهم العرقية . فالمهاجر لا ينسى المكان الذي ولد فيه ، بل ان علاقاته لا تنقطع ابدا مع هذا المكان ، فالهجرة لا تمثل الا حادثة عرضية تفرضها ضرورات اقتصادية . ويؤدي ذلك - بطبيعة الحال - الى مزيد من الانقسامية في المجتمع ككل وفي وحداته الاقليمية بصفة خاصة . بل ان النظام السياسي الداخلى لجماعة الايبو يعضد من هذه الانقسامية . فكل جماعة تتكون من عدة مئات من الافراد تدعى أنها وحدة سياسية مستقلة ، الأمر الذي يولد مزيدا من الانقسام الداخلى . ولا يقبل الايبو من سكان القرى اى

Chukuemka Onwubu, «Ethnic Identity, Political Integration and National Development : The Igbo Diaspora in Nigeria», J.M.A.S. Vol 13, No. 3 1975, pp. 399-413 (٥٤)

شكل من اشكال السلطة اللهم سلطة كبار السن الذين يشكلون مجلسا يستطيع أن يفرض احكامه على الجماعات المنقسمة • ولا يستمد كبار السن سلطتهم من أساس قانوني ، وانما يستمدونها من أساس عرقي يرتبط بقدرتهم على اسداء النصح وتقديم الاستشارة •

وبرغم ذلك فقد اتجهت بعض الدراسات الأخرى حيث حاولت إبراز بعض خطوط التكامل في المجتمع التعددي الذي يتعرض لتحويلات في بنائه الاجتماعي • فقد أكدت إحدى الدراسات التي أجريت على أحد المجتمعات المحلية في جنوب افريقيا (٥٥) ، أهمية الحراك الاجتماعي في تحقيق هذا التكامل • فقد نفذت الجماعة العرقية المسيطرة - وهي الجماعة البيضاء - سياسة عزل المجتمعات السوداء • ولكن تحول المجتمع من الاطار التقليدي الى الاطار الحديث قد أدى الى ظهور فئة جديدة - صفوة جديدة - من السود الوطنيين ، لم يدخلوا في صراع مع الجماعة المسيطرة ، وانما توافقوا - من ناحية - مع سياسة العزل ، وتعاونوا من ناحية أخرى مع الجماعة العرقية المسيطرة بحيث ظهر بينهما قدر من الاعتماد المتبادل • وتتكون هذه الصفوة الجديدة من المهنيين وموظفي الحكومة ، والمديرين والموظفين الذين يعملون لحسابهم الخاص • ولقد تحركت هذه الصفوة الجديدة خطوات كبيرة صعودا على سلم الحراك الاجتماعي • وقد أدى الحراك الاجتماعي لهذه الصفوة الى مزيد من التكامل داخل المجتمع ككل • ويظهر الحراك الاجتماعي هنا وكأنه الميكانيزم الرئيسي لتحقيق التكامل • فعن طريقة تلتئم القرى والمدن المنعزلة مع البناء الكلي للمجتمع • والصفوة الجديدة هي - أولا وأخيرا - الأداة الفاعلة في هذا الميكانيزم •

Mia Brandel-Syrier : Reeftown Elite : Social Mobility (٥٥)

in a Black African Community on the Johannesburg Reef,
African Publishing Corporation, N.J., 1971.

ولاشك أن المجتمعات التي لا تعرف نظام العزل العنصرى قد تختلف في هيكلانيزمتها تكاملها . ويرتبط أحد الميكانيزمات الشهيرة لدى الباحثين في هذا الاتجاه بالتعبئة السياسية التي تمارسها السلطة المركزية بهدف ربط القرى النائية والمنعزلة بالاطار القومى . ولقد اتضح من خلال الدراستين اللتين عرضتا في بداية الفقرة مدى فشل الحكومات المركزية في تحقيق ذلك . ومع ذلك فان بعض الدراسات تؤكد عمليّة التعبئة السياسية كأساس لتحقيق التكامل القومى في مجتمع الموزايكا . ولقد كان هذا هو المنطلق الذى انطلقت منه دراسة ايليا حريق عن قرية مصرية (٥٦) . ذهب حريق في هذه الدراسة الى القول بأن التغير في المجتمع الريفى يأتى من تفاعل عوامل داخلية وخارجية . فهو وان كان نتيجة فرض أو نشر قيم مركزية ، الا أنه يرتبط أيضا بدرجة استجابة القرويين لهذه القيم وتعاملهم معها . ولقد أدت التغيرات التى حدثت في المجتمع المصرى منذ بداية الخمسينيات الى ظهور ايدىولوجية قومية بدأت الصفوة القومية في فرضها على كل المجتمع . وفي هذه الظروف بدأت القرى المنعزلة تخضع لهذه الايدىولوجية . واصبح النسق السياسى القومى هو النقطة المرجعية للسلوك السياسى والاقتصادى للفلاحين المصريين . غير أن البحث يكشف عن استعداد لدى الفلاحين لقبول هذا النوع من التعبئة السياسية ، الامر الذى جعل ما يبثه النسق السياسى المركزى الى مجتمع القرية سريع الانتشار والتأثير . ولقد أدت التعبئة السياسية المركزية الى ربط المجتمع الريفى - على هذا النحو - بالمجتمع القومى . وترتب على العملية برمتها تغير في نمط السلطة في المجتمع الريفى . فظهرت في هذا المجتمع الريفى صفوة جديدة أخذت بزمام الامور من الصفوة القديمة التقليدية . وبدأ توزيع القوة يصبح أكثر انتشارا على جماعات مختلفة . وفي هذه الظروف ظهر تناقض بين بناء القوة على المستوى المحلى الذى يظهر فيه قدر من الانتشار وبين بناء القوة على المستوى القومى الذى يتركز في ايدى فئة

I. Harik, The Political Mobilization of Peasants, op. cit. (٥٦).

قليلة من الناس • وهكذا يولد التكامل داخل مجتمع الموزايكا تناقصا من
نوع جديد •

وهكذا جسدت هذه الدراسات الامبيريقية بعض القضايا النظرية التي
أثارها أنصار نظرية مجتمع الموزايكا التعددى • والسؤال الذى يطفر الى
الذهن الآن : الى أى مدى يتمتع هذا الاتجاه بالصدق الامبيريقى ؟ وبعبارة
أخرى : الى أى مدى يصبح هذا الاتجاه ملائما لتفسير بناء الصفوة فى مجتمعات
العالم الثالث ؟ الاجابة على هذا السؤال هى موضوع الفقرة النقدية القادمة •

رابعا : نقد نظرية مجتمع الموزايكا

يجب أن نظرية مجتمع الموزايكا التعددى تميل الى الأخرى نحو التحليل
المعيارى ، طالما أنها تضع صورة المجتمع الغربى كنموذج مثالى • غير أن
مشكلات هذه النظرية أكبر وأعمق من المشكلات التى يثيرها التحليل المعيارى •
فقد أدت المضامين الايديولوجية الكامنة فى هذه النظرية الى تحويل بؤرة
اهتمام التحليل السوسيولوجى الى ظواهر ليست حاسمة فى تشكيل البناء
الاجتماعى ، وهى ان أثرت فهى سطحية اذا قورنت بالظواهر التى سببت
وجودها أساسا • وسوف يستهدف هذا النقد تأكيد الحقيقة التى مؤداها
أن هذه النظرية قد فشلت فى تقديم بديل نظرى كاف لتحليل البناء الاجتماعى
السياسى لمجتمعات العالم الثالث ، كما أنها لا تتمتع بالصدق الامبيريقى الا
فى المجتمعات التى تصبح فيها الانقسامات العرقية على درجة كبيرة من
الحدة ، وحتى فى هذه الظروف فإن التفسير الذى تقدمه هذه النظرية لا يبرز
الهيمنة السياسية الاقتصادية لجنس معين بقدر ما يبرز دوره فى تحقيق
التكامل داخل المجتمع الانقسامى • ولا شك أن السبب الكامن خلف هذا
انكوص النظرى ، يرجع الى فرط اهتمام أنصار هذه النظرية بالتحليل
المعيارى ، فضلا عن اهتمامهم بالمشكلات الصغرى minor issues للبناء
الاجتماعى ورد البناء برمته الى هذه المشكلات ، الأمر الذى أدى الى ضحالة

تفسيرهم للمشكلات الكبرى كمشكلة الطبقة ، والقوة ، والسلطة ، والصراع ، وغيرها .

١ - يصف أنصار هذه النظرية - خاصة مجموعة افريقيا - نظريتهم بأنها « نظرية صراع » ، Conflict theory في مقابل نظرية « التوازن » ، equilibrium theory ، وهم يعتقدون بذلك أنهم حققوا تقدما نحو صياغة نظرية عامة للمجتمع التعددى ، تتفوق في عموميتها على الصياغات المبكرة لهذه النظرية كما جاءت في أعمال فيرنفال . غير ان هذا الادعاء قد جرف هذه النظرية الى بؤرة التحليل المياري المرتبط بنموذج التوازن . فالواضح من العرض السابق ان التقدم الوحيد الذى حققته هذه النظرية على صياغة فيرنفال هو القول بأن كل المجتمعات تعرف صورة من صور التعددية : والمحقق أن هذا التقدم قد شوه صياغة فيرنفال أكثر من كونه قد أكسبها طابعا عاما . فقد ذهب أحد النقاد الى القول بأن النظرية فشلت في تطوير عنصرين هامين في صياغة فيرنفال : الأول : التأكيد على الجانب الاقتصادى وعلاقات السوق في المجتمع التعددى ، والثانى : التأكيد على انطباق فكرة المجتمع التعددى على مجتمعات بعينها ، دون المجتمعات الأخرى (٥٧) . وانصب الاهتمام بدلا من ذلك على محاولة تعميم فكرة المجتمع التعددى الذى يقوم على الانقسام العرقى على مجتمعات كثيرة ، مع التفرقة بين أنماط مختلفة للمجتمع التعددى وفقا لدرجة التكامل وعمومية القيم . وقد أدى ذلك بهم - على ماذهب ناقد آخر - الى تشييد نموذج مثالى واختباره في الواقع كنظرية ، الأمر الذى أدى الى اختلاط الوصف بالتفسير . والتناقض بين الصياغة المييارية والواقع ، والاهتمام بجوانب الضبط الاجتماعى أكثر من الاهتمام

B. Magubane, «Pluralism and Conflict Situation in Africa: (٥٧) A New Look», Af.S.R. Vol. 7, June, 1969, p. 541.

إذا كان القول السابق يصدق على مجموعة افريقيا ، فماذا عن مجموعة الشرق الأوسط ؟ الواضح من العرض السابق أن مجموعة الشرق الأوسط لم تبذل جهدا في المقارنة بين أنماط متعددة من مجتمع الموزايكا ، غير أن هذه المقارنة كامنة في صياغتهم على أى حال • ويبدو أن مجموعة الشرق الأوسط - خاصة كارلتون كون ونيوفانهويزه - ترى في مجتمع الموزايكا التقليدى مجتمعا راكدا لا يصيبه التغير إلا ببطء شديد • وقد أدى هذا الى مغالطة من نوع آخر ، تنحصر في وصف المجتمع التقليدى في العصر الحديث بنفس الطريقة التى وصفه بها ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر (٥٩) • وكأن هذا المجتمع لم يتعرض لأى تغيرات ، وأن تنظيمة الاجتماعى التقليدى من الصعب أن يتحول الى الصورة المثلى للمجتمع (الغربى) فمن المعروف أن ابن خلدون قد ركز في المجتمعات التى كتب عنها (ومنها بعض مجتمعات الشرق الأوسط التى تحدث عنها أنصار نظرية مجتمع الموزايكا) على الانقسام بين أهل البداوة ، وأهل الزراعة ، وأهل الحضر • ولقد تحدث عن الجماعات والعصبيات بشكل يكشف عن انقسام وتعددية ظاهرين في هذه المجتمعات • فأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضا الى أن يكونوا لحما وقربة وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر فيتفرقون شيئا وعصائب • (٦٠) • ومن المدهش أن نجد ابن خلدون

M. Cross, «Cultural Pluralism and Sociological Theory», (٥٨) S.E.S, Vol. 17, No. 4, 1968, pp. 375-397

(٥٩) وبرغم التشابه الواضح بين صياغة ابن خلدون وصياغة نيوفانهويزه •
وكون الا أن هذين الباحثين لا يشيران اليه من قريب أو من بعيد ،
ويقدمان صياغتهما النظرية على أنها شئ جديد تماما •

(٦٠) ابن خلدون ، المقدمة : الجزء الأول من كتاب العبر ، مطبعة التقدم ،
بشارع محمد على بمصر ، ١٣٢٩ هـ • ص ٤١٦ •

يشير إشارة صريحة الى ما أطلق عليه أنصار نظرية الموزايكا فيما بعد « تقسيم العمل العرقى » عندما كتب فصلا « في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض » ، حيث يعمل أهل كل مصر في صنعة معينة وفي عمل معين « فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه » (٦١) بل ان ابن خلدون يصور النظام السياسى في المجتمع بنفس الأسلوب الذى تحدث به هؤلاء الباحثون المعاصرون . ولنقتبس من ابن خلدون باستفاضة في هذا المجال :

« ان كل حى أو بطن من القبائل وان كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا عصبية أخرى لانساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم . . والرياسة فيهم انما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل . ولما كانت الرياسة انما تكون بالغلب وجب ان تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصبية ليقع الغلب لها وتتم الرياسة لاهلها فاذا وجب ذلك تعين أن الرياسة لا تزال في ذلك النصاب المخصوص أهل الغلب عليهم اذ لو خرجت عنهم وصارت في العصابة الأخرى النازلة عن عصبيتهم في الغلب لما تمت لهم الرياسة . فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم الى فرع ولا تنتقل الا الى الأقوى من فروعه لما قلنا من سر الغلب لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج في المتكون لا يصلح اذا تكافأت العناصر فلا بد من غلبة أحدها والا لم يتم التكوين فهذا سر اشتراط الغلب في العصبية ومنه تعين استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قرره » (٦٢) .

ولا يحتاج الاقتباس لأى تعليق لايضاح أوجه الشبه بين أفكار ابن خلدون وأفكار أنصار نظرية مجتمع الموزايكا من مجموعة الشرق الأوسط .

(٦١) المرجع السابق ، ص ٤١٥ .

(٦٢) المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

على أن هذا الشبه لا يهمننا في ذاته على ما فيه من دلالة ، وإنما الذى يهمننا هنا هو أن أنصار نظرية مجتمع الموزايكا قد نظروا الى مجتمعات الشرق الأوسط في القرن العشرين نفس النظرة التى رآها ابن خلدون في القرن الرابع عشر ، وكان هذه المجتمعات لم تعرف أى ضرب من ضروب التغير أو التحول منذ ذلك التاريخ ، وهذا دليل قاطع على ركود هذه المجتمعات وعدم قابليتها للتحول السريع من وجهة نظر أصحاب هذا الاتجاه . وما أود أن أوكد عليه هنا هو أن المجتمع الذى يصفه هؤلاء الباحثون لم يعد موجودا الآن ، وأن النظرية التى قدموها لا تصف الا مجتمعا كان قائما في ماضى المجتمع الذى يهتمون به فقط .

٢ - لقد أجمع نقاد هذا الاتجاه على نقطة هامة مؤداها أنه يبسط الواقع الاجتماعى ويقدم تحليلا سطحيا له ، وقد أدى هذا الى إهمال جوانب هامة في هذا الواقع . وقد كتب أحد النقاد حول هذه النقطة يقول .

« تمثل نظريات التعددية الثقافية تبسيطا ضخما للواقع .. فقد تركت أسئلة كثيرة دون اشارة ، وعندما كانت تثار بعض الاسئلة وتقدم لها اجابات أو تفسيرات جزئية فإن هذه الاجابات وهذه التفسيرات كانت تميل الى توجيه انتباهنا بعيدا عن أهم المسائل حيوية وجوهرية » (٦٣) .

كما ذهب ناقد آخر الى أن هذا الاتجاه يعتبر اتجاها لا تاريخيا ahistorical يعزل مواقف الصراع في المكان والزمان بحيث ظهر الصراع العرقى والى والى وكأنه يعمل في فراغ بمعزل عن العوامل الاجتماعية التاريخية ، أو السياق التاريخى للموقف الاستعماري في المجتمعات الافريقية (٦٤) . وكتب ناقد ثالث معلقا على أسلوب التحليل وطابعه في هذا الاتجاه يقول :

M. Cross, op. cit., p. 381.

(٦٣)

Magnabane, op. cit, p. 529.

(٦٤) .

• ان تأسس التحليل على المحكات التى تعرف الجماعة بها نفسها (كالمسللة والدين) والصراع بين هذه الجماعات يؤدى الى اهمال الجوانب التى تحتاج الى تفسير واعتبارها معطيات • وما يحتاج الى تفسير هو لماذا وجدت هذه الجماعات بالفعل ولماذا تدخل فى صراع بعضها مع البعض الآخر • ولفهم هذه الأمور لابد من تحليل الظروف التى تولد أنماطا معينة من الصراع، وتلك التى تؤثر فى طبيعة ودرجة شدته ، (٦٥) •

وكل هذه الانتقادات تشير الى أن الاتجاه التعددى هنا قد ركز على عناصر فرعية وثانوية واهمل الجوانب الهامة التى يعتبر تفسيرها أساس تحليل البناء الاجتماعى كالصراع والطبقات وعلاقة ذلك بالقوة السياسية والظروف التاريخية التى أفرزت كل هذه العلاقات • وإذا حاولنا أن نطور هذا النقد خطوة أخرى، فأننى أميل الى التمييز بين نوعين من المسائل *issues* المتعلقة بدراسة البناء الاجتماعى : النوع الأول هو المسائل الثانوية *minor issues* ، والنوع الثانى هو المسائل الأساسية *major issues* • وأقصد بالمسائل الثانوية تلك الظواهر اللاحقة *epiphenomena* التى ليس لها وجود مستمر فى الزمان والمكان • وهذا النوع من المسائل لا يمكن التعميم عليه ، بل ان أى تعميم يصدر عنها يعتبر غير صادق بالضرورة اللهم الا اذا تحولت هذه المسائل انشائية - ولظروف تاريخية معينة - الى مسائل جوهرية • اما المسائل الأساسية أو الجوهرية فهى ظواهر أصيلة *sui-generis* لها وجود تاريخى فى الزمان والمكان، وهى الظواهر التى يمكن أن يتم التعميم من خلالها دون الخوف من الوقوع فى مواطن الزلل • وإذا أخذنا مثالا على هذين النوعين من المسائل فإن الحرب تعتبر مسألة ثانوية فى حين أن الصراع الذى قد يولد الحرب يعتبر مسألة أساسية •

H. Wolpe, «The Theory of Internal Colonialism : The (٦٥) South African Case» in Oxal et al (eds.) *Beyond the Theory of Development*, Routledge and Kegan Paul, 1976, p. 238.

فالحرب تنشب في لحظات بعينها في التاريخ ، وبسبب ظروف تبدو مؤقتة ،
وهي محكوم عليها بالانتهاء . أما الصراع فانه يرتبط بجوهر العلاقات الاجتماعية
وهو موجود بأشكال مختلفة في كل الفترات التاريخية تقريبا . وإذا ما بدأ
الباحث من ظاهرة الحرب فانه لا يستطيع أن يقدم تفسيراً كافياً لأنماط
الصراع ، ولكنه إذا بدأ من ظاهرة الصراع فانه يستطيع أن يقدم تفسيراً
كافياً لظاهرة الحرب . ويدعونا هذا إلى أن نأخذ في اعتبارنا نقطتين :

(١) ان مسألة أساسية واحدة لا يمكن أن تقدم تفسيراً كاملاً للبناء
الاجتماعي برمته ، وانما يجب أن يتم ذلك من خلال توليفة من
هذه المسائل .

(ب) ان المسائل الثانوية يمكن أن تصبح في فترات تاريخية مسائل
أساسية ، ولا يمكن - في هذه الحالة - تقديم تفسير كاف للبناء
الاجتماعي في هذه الفترة دون الإشارة إليها . وهكذا لا نستطيع
أن نفسر الحقبة النازية في ألمانيا دون أن نشير إلى ظاهرة
الحرب كمسألة أساسية ، تماماً كما لا نستطيع أن نفسر البناء
الاجتماعي المعاصر لمجتمع جنوب أفريقيا دون الإشارة إلى سياسة
العزل العنصري كمسألة أساسية .

وإذا حاولنا تطبيق هذا على مقولات نظرية مجتمع الموزايكا ، فأننا
نجد أن الانقسامات السلالية والعرقية ليست من المسائل الأساسية التي
توجد في كل المجتمعات في كل زمان بحيث يمكن من خلالها صياغة نظرية
عامة عن المجتمع . وفي هذه الحالة فإن رد كل عناصر البناء الاجتماعي لهذه
الانقسامات لن يقدم إلا صورة مشوهة عن هذا البناء وأكثر من هذا فإن مثل
هذا التحليل سوف يطمس المسائل الأساسية التي تحتاج إلى تفسير والتي
أشرنا إلى بعض منها منذ قليل ، وهي من المسائل الأساسية التي يمكن
الاعتماد عليها بحق . بل البدء من هذه المسائل الأساسية كفيلاً هو نفسه

بأن يلقى الضوء على المشكلات السلافية كما أشار النقاد الذين أوردت آراءهم في مكان سابق من هذا التحليل النقدي . فدراسة الصفوة أو بناء القوة - على سبيل المثال - من خلال فكرة الانقسام العرقي يظهر الصفوة وكأنها تعمل في فراغ ، أو كأنها مقطورة الصلة بالبناء الاجتماعي الذي تحقق التكامل فيه وهي الوظيفة المنوطة بالصفوة في هذه الصياغة النظرية . والأمر يختلف إذا بدأت الدراسة من منظور مغاير كان تبدأ الدراسة من علاقة الصفوة بالبناء الاقتصادي - القيمي في المجتمع أو من علاقة الصفوة بالتركيب الطبقي ، أو بالظروف التاريخية التي شكلت البناء الاجتماعي على نحو معين . في مثل هذه الحالة ، فإن التحليل سوف ينتهي الى نتائج مغايرة . وفضلا عن ذلك فإن المشكلات الفرعية المتعلقة بالانقسام العرقي قد تبرز في أثناء هذا التحليل دون اعتبارها مشكلات حاسمة في تشكيل البناء الاجتماعي .

ولا يقلل من أهمية استبعاد مشكلات السلافية والعرق من التحليل كون مجتمعات العالم الثالث مجتمعات متغيرة ولم تصل بعد الى مرحلة من التجانس الثقافي العرقي كما هو الحال في الدول المتقدمة . ذلك أن بعض هذه الدول المتقدمة ذاتها لا تزال تعرف مشكلات الانقسام العرقي مثل كندا وبلجيكا وإيطاليا والمملكة المتحدة . هذا فضلا عن أن الكثير من مجتمعات العالم الثالث قد تجاوزت مرحلة الانقسام العرقي ، بل إن بعض هذه المجتمعات لا يعرف مشكلات الانقسام العرقي على الإطلاق . فقد أكدت دراسة أجريت على مجتمع بدائي بسيط (جزيرة موريشيوس Mauritius في المحيط الهندي) أن مفهوم المجتمع التعددي قد فشل في تفسير التدرج الاجتماعي في هذه الجزيرة . واكتشف الباحث أن البناء الاجتماعي لهذا المجتمع البسيط قد خضع لعملية تباين بحيث تفوقت التقسيمات الاقتصادية للمجتمع على تقسيماته السلافية ، وتحول المجتمع من مجتمع يقوم التدرج فيه على السلالة الى مجتمع يقوم التدرج فيه على الطبقة بمفهومها الاقتصادي (١٦) .

Burton Bendict, «Stratification in Plural Societies», A.A., (٦٦)
Vol. 64, 1962, p. 1244.

ويترتب على هذا التحليل النقدي أن يتكشف القصور النظرى الذى
يكتنف هذه النظرية ، الأمر الذى يدعونا الى رفضها وعدم الاعتماد عليها
مطلقا فى تحليل أبنية مجتمعات العالم الثالث . ويكفى أنها تحمل دعوى
ضمنية بانقسام هذه المجتمعات فى الوقت الذى تحتاج فيه هذه المجتمعات
الى توحيد الجهود وتكاملها من أجل أحداث تغيير جذرى .